

بنية الشخصية وإنتاج الدلالة
قراءة سيميائية في رواية سادة المصير
لسفيان زدادقة

**The Structure of the 'Character' and the Generation of Significance: A
Semiotic Reading into Sofiane Zedadka's novel, Sadet El-Masir
(MASTERS OF FATE)**

د/ رشيد بلعيفة

جامعة عباس لغرور - خنشلة (الجزائر)

البريد الإلكتروني: belaifarachid19@gmail.com

رقم الهاتف: 0663179000

تاريخ النشر 2020-11-08	تاريخ القبول: 2020-10-10	تاريخ الإرسال: 2020/08/30
------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تسعى هذه المقاربة الوقوف عند أحد مكونات النص الروائي المعاصر، وهو مكون الشخصية باعتبارها المحرك الأساس لجملة أحداث الرواية، وهي إذ تتطلع إلى التعريف والكشف عن مسارات هذا العنصر الهام، فإنها كذلك تروم تفكيك جملة السياقات اللغوية وغير اللغوية التي عجت بها رواية سادة المصير، فما مدى أهمية هذا العنصر في صيرورة أحداث النص؟ وكيف استثمر الروائي شخصياته في دفع العملية السردية قدما؟ كل هذه التساؤلات وغيرها هو ما تبحث فيه هذه المقاربة.

الكلمات المفتاحية: الشخصية؛ الفاعلية؛ السرد؛ النموذج العامل؛ الرواية.

Abstract:

This study analyzes one of the components of the narrative text's leading mover of the events; the 'character'. Besides defining this component and uncovering its traits, the work analyses the different linguistic and non-linguistic contexts in the novel of Sadet El-Masir. Accordingly, the following questions are pondered: to what extent is the 'character' important in the development of the events? How did the novelist invest the character in fueling the process of events? Did he employ his characters pragmatically? What was added accordingly at both the aesthetic and descriptive level?

Keywords : Character; Effectiveness; Narrative ; Actantial model; Novel.

أولا-مقدمة:

تأسس الكتابة النقدية من دافع النزوع نحو اكتشاف المحبوء من العملية السردية ونزع أردية التدثر عن المعنى الذي يكتنزه الخطاب، وترمي هذه الدراسة البحث وفق مستويين اثنين:

- مستوى نظري؛ نعالج فيه المسألة الإبداعية؛ لنعرضها على الفعالية الاستمولوجية التي أنتجت له الإطار النظري العام، ومن ثمة تعيين التدافع الحاصل على مستوى الكتابة الأدبية، لرفع اللبس الحاصل حول صدق التجربة الأدبية.

- مستوى تطبيقي: نُشَرِّحُ فيه نصا روائيا يقع ضمن ما عرف بالأدب الاستعجالي، وهي رواية موسومة بعنوان: (سادة المصير) لكتابها (سفيان زدادقة)، لنعرض النظري على الممارسة النقدية. ونستخلص منه كفاءات التوظيف التي مارسها المبدع لمختلف شخصيات الخطاب الروائي.

وانطلاقا مما سبق، يمكن صياغة جملة من التساؤلات المعرفية التي تروم هذه الدراسة الإجابة عنها وبسطها؛ منها على سبيل التمثيل لا الحصر: هل استطاع الروائي توظيف شخصياته توظيفا براغماتيا؟ بمعنى أنه استغلها في رسم مسارات روايته كلها؟ وما هي الإضافة الجمالية على مستوى السرد والوصف معا؟.

ثانيا- تدليل الشخصية:

وتأسيسا على ما سبق؛ فقد شكلت الشخصية مدار البحث واهتمام المنظرين والعلماء في مجال السرديات (Narrativité)، ورصد علاقاتها، وقبل ذلك ماهيتها ووجودها في المتون السردية المختلفة، إذ عليها مدار العمل الإبداعي برمته.

وقبل أن نقوم بمقاربة النص موضوع البحث مقارنة سيميائية -نظرا لما تتيحه هذه المقاربة من توظيف للمصطلحات وصرامةمكنها إيائها الإجراء- لا مانع من بسط موجز لجهود ثلة من العلماء والمنظرين في هذا الحقل، حيث يعتبر (فلاديمير بروب V. Propp) من بين الذين اهتموا بهذا العنصر الحكائي الهام من منظور وظيفي، أي ما تؤديه الشخصية من وظيفة أو دور من خلال كتابه "مورفولوجية الحكاية الخرافية"، فالشخصية في نظر (بروب): "أداة تنفيذ الفعل"¹، لذلك يجب الاهتمام بما يصدر عنها وإغفال كينونتها وبعدها الثقافي، وهي عنده لا تتحدد بصفاتها وخصائصها الذاتية، بل بالأعمال التي توظف من أجلها ونوعيتها، "إن ما هو مهم في دراسة الحكاية هو التساؤل عما تقوم به الشخصية، أما من فعل هذا الشيء أو ذاك وكيف فعله، فهذه أسئلة لا يمكن طرحها باعتبارها توابع لا غير"²، وقد تمّ تحديده لهذا العنصر من خلال دراسته الحكايات الشعبية العجيبة، ووزع الوظائف (Fonctions) التي تقوم بها الشخصية إلى سبع دوائر أفعال (Sphères d'actions).

1. دائرة فعل المعتدي (L'agresseur).

2. دائرة فعل المانح (Le pourvoyeur) أو الواهب (Le donateur).



3. دائرة فعل المساعد (**L'auxiliaire**).

4. دائرة فعل الأميرة أو الشخصية مدار البحث. (**La Princesse**)

5. دائرة فعل الموكل (**Le mandateur**).

6. دائرة فعل البطل (**Le héros**).

7. دائرة فعل البطل المزيف (**Le faux héros**).³

وقد نبّه (بروب) إلى "إمكان اضطلاع شخصية واحدة بأعمال أكثر من دائرة (كأن يكون المانح في الوقت ذاته مساعدا) أو أن تتغير الشخصية داخل الدائرة الواحدة (كأن تتم عملية الاعتداء بواسطة شخصية معينة، ثم تتواصل نفس هذه الوظيفة بواسطة شخصية أخرى)"⁴.

غير أن هذا الطرح البروبي واجه جملة من الانتقادات والاعتراضات التي أتت بعد تطبيق مشروعه هذا، منها ما أتى به (أ.ج. غريماس **A.J. Greimas**) الذي طور المفهوم الذي جاء به (بروب)، وأسس أول نظام عاملي للشخصيات، أطلق عليه (النموذج العاملي **Modèle actanciel**)، ويرتكز على ثلاثة أزواج من العوامل: (المرسل، المرسل إليه)، (الذات، الموضوع)، (المساعد، المعارض).

وهذه العوامل (**Actans**) ينظر إليها من مدى مشاركتها داخل المحاور الدلالية الثلاثة الموجودة في الجملة، محور الرغبة (**Axe de désir**)، محور الإبلاغ (**Axe de communication**)، ومحور الصراع (**Axe de lutte**)، وبهذا ميّز (غريماس) بين العوامل والشخصية، التي ما هي إلا وجه محقق من وجوه هذا الفعل، وهذا النظام العاملي مكّنه من القول: "إن الشخصية الروائية هي نقطة تقاطع والتقاء مستويين، سردي وخطابي، فالبنى أو البرامج السردية تصل الأدوار العاملة بعضها ببعض، وتنظم المحركات والوظائف والأعمال التي يقوم بها الأشخاص في الرواية، بينما تنظم البنى الخطابية الصفات أو المؤهلات التي تحملها هذه الشخصيات"⁵.

إن مفهوم العاملة لدى (غريماس) أضفى على الشخصية رؤية أكثر دلالية، لا كمرجع نموذجي ولا كتصور وصفي مغلق، ولكن كبنية فاعلة ومؤسسة على قواعد صراعية يكون حافز المشاركة والرغبة في العمل هو المنظم لدلالاتها التركيبية واللفظية داخل النص.

إلى جانب آراء (بروب) و(غريماس) في تحديد ماهية هذا العنصر الحكائي الهام، هناك رأي آخر أسهم في الوقوف عند هذا المكون السردى بشكل مسهب، هو رأي الناقد (فيليب هامون **Philippe Hamon**) "من خلال كتابه (سيمولوجية الشخصيات الروائية **Pour un statut sémiologique du personnage**) فالشخصية في عرف هذا الناقد يمكن تحديدها "بأنها مورفيم فارغ، أي بياض دلالي لا تحيل إلا على نفسه إنها ليست معطى قبليليا كليا، فهي تحتاج إلى بناء،

بناء تقوم بإجازه الذات المستهلكة للنص زمن فعل القراءة، هذا المورفيم الفارغ يظهر من خلال دال لامتواصل ويحيل على مدلول لامتواصل⁶، فالروائي يقدم شخصية فارغة من الدلالات (الأفعال والصفات) التي تتشكل بفعل القراءة من طرف المتلقي، الذي يعيد بنائها، كما يقوم النص ببنائها أيضا، وهي لا تكتمل ولا تحدد علاماتها إلا باكتمال النص، ومن خلال علاقتها بباقي الشخصيات الأخرى، وهي أيضا علامة لسانية أو مفهوم معنوي أو شيء من الجماد "وتطلق هذه العبارة عنده على كل ما هو مدار نص سردي، فالحيوان شخصية في نص يقص وقائع من عالم الحيوان، والجرثومة شخصية في نص يسرد أطوار مرض معين"⁷.

وتبعا لمعياري الكم والكيف اللذين اعتمدهما هامون؛ حدد ثلاثة أنواع من الشخصيات: المرجعية (Référentiels)، والإشارية أو الواصلة (Embrayeurs)، والاستذكارية (Anaphoriques)، وبهذا يكون قد صنف الشخصية ضمن محور (المبدع، النص، القارئ)⁸.

بعد هذا المدخل النظري حول تحديد مفهوم الشخصية عند بعض النقاد الغربيين، نلج عالم النص الروائي في رواية (سادة المصير) لتؤانس الخطاب بقراءة في الرواية.

تتحرك أحداث الرواية متفاعلة مع مجموعة الشخصيات التي اختارها الكاتب في مسارات متباعدة ومحملة ببرامج عقدية وإيديولوجية، تحاول كل فئة أن تنسف وتلغي الفئة الأخرى، غير أن مناط السرد في العملية الإبداعية للكاتب، وإن بدا في معظم الأحيان واضحا، إلا أنه يكرر بقارئه ويقتلعه من عادة القراءة الوثوقية ليشتي له بجملته من الأفكار والانطباعات، من شأنها أن تعدل من أفق انتظاره إن لم نقل تلغيه.

فالأحداث في الرواية تتسارع بشكل يجعل القارئ لا يشارك المبدع في رسم معالم الأحداث وصيرورتها في جانبها التخيلي على الأقل، غير أن التساؤل الذي يلح على قارئ هذا العمل هو: من هم سادة المصير؟ ولماذا هذا العنوان بالضبط؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي تحليلا معمقا وسيميائيا لمثن العنوان، باعتباره أول مفتاح إجرائي (clé opératoire)، لفك شفرات النص، ونزع رداء التدثر عن المعنى.

ثالثا-قراءة في رواية (سادة المصير):

تدور أحداث الرواية في بلدة صغيرة يقطنها سكان بسطاء، وزمنيا أثناء الزيارة التي قام بها رئيس البلاد إلى تلك البلدة، وكأن الملفوظات السردية الافتتاحية للرواية هي التي رسمت معالم أحداثها وساهمت في تطورها، إن لم نقل في إنشاء النص برمته، فقد رسمت هذه الزيارة الرئاسية في ذهن أحد أبناء البلدة (عمار بن المسعود) صورة حاملة لبلوغ هذه المرتبة متمثلة في رئاسة الدولة، وفي الوقت ذاته عملت كحافز (motif) للشخصية المركزية في الرواية قصد بلوغ هذا المأرب، وتتطور الأحداث في علاقات تفاعلية بين الشخصيات وأدوارها، ووظائفها السردية، لتصل إلى تأزيم على مستوى السرد والحكي، فبمجرد فتح المجال أمام الفعاليات السياسية لتبني مشاريع ديمقراطية وتنافس مختلف القوى في ذلك، ما فتئت السلطة أن أغلقت باب الحوار وصاشرت حرية الرأي، ودخلت البلاد بعدها في غياهب الظلمات التي أقحمها فيها صانعو القرار وسادة المصير، لتعرف الأحداث وكذا

الشخصيات الحكائية مسارا سرديا آخر مغايرا لما كان يتوقعه المنتج الثاني للنص، وتتطور أحداثها إلى حروب طائفية ومجازر رهيبة ساهم في صنعها وبلورتها ضيق النظر، وتفشي عاملي الجهل والأمية في أوساط واسعة من الناس.

في أثناء ذلك، لم يغفل الراوي أثناء عملية السرد فترات متقطعة للمتعة والرغبة والجمال برغبة سحرية مكنته من توجيه الأعمال والأدوار، وكذا الشخصيات أوجها شتى، جاعلا في الوقت نفسه من القارئ المشارك الفعلي لعملية الإبداع في حد ذاتها، بإمكانية التخيل والتكهن بمجريات سير الأحداث، لكن في كثير من الأحيان لا يُوفَّقُ القارئ إلى تتبع عملية سير الأحداث هذه، حيث يكرر به الكاتب ويتدخل حتى في عملية السرد، التي تكون على لسان شخصياته، لتخلص عملية التفاعل بين الشخصيات والأحداث، وكذا بين الشخصيات وعاملي الزمان والمكان إلى نهاية يشترك في رسم حدودها المبدع والقارئ على السواء، وبالرغم من عملية الوضوح التي سادت مختلف المخططات الخطابية والسردية أثناء عملية الحكاية، إلا أن النص يتمنع على قارئه بعدم البوح الكامل، أو ما يمكن الاصطلاح عليه بالمسكوت عنه داخل المتن الروائي، وهو ما نحاول استكناهه خفيا؛ من خلال عرضنا لجملة من الشخصيات التي كونت الإطار العام في عملية السرد، وهي على التالي: عمار بن المسعود، جمال المبروك، سمير الطائيش، لويزة الحسناوية، الجنرالات الأربعة عشر.

غير أن باقي الشخصيات لا يمكن عدّها أو اعتبارها شخصيات فاعلة في المتن الروائي، ولا يمكن كذلك إحصاء كل الأسماء الواردة في الرواية؛ نظرا لاستحالة إمكانية الإحاطة بكل ما يتعلق بها من أدوار ووظائف.

رابعا- بنية الشخصية الفاعلة في الرواية:

إن الشخصية كائن ورقي على حد تعبير (بارت) (Roland Barthes) ينشأ إنشاءً، وهي "كائن حي بالمعنى الفني، لكنه بلا أحشاء"⁹، يرسم معالمه المبدع ويشكله تشكيلا فنيا ما، وهو الذي يحدد صفاته ومؤهلاته وكذا تصرفاته، باعتباره صنيعة. وشخصيات (سفيان زدادقة) لا تشذ عن هذا المسار، إذ يتدخل الكاتب في عملية التعبير، ويرسم بمحمل التصرفات المرضية والقبحية، وذلك نابع من تحميله إياها أفكاره الإيديولوجية والعقدية، كما في الملفوظات السردية التالية: "كان حزب اللحي الطويلة يضم عناصر متمردة بطبيعتها، حاملة بمجتمع ينشأ من صلب كتاب، يقضون جل أوقاتهم في الشوارع باللبستهم المتميزة ويحاولون استمالة الشباب إليهم"¹⁰. ثم في ملفوظ آخر: "أما حزب الحليقيين فعلى النقيض من ذلك، كان يضم مجموعة من المثقفين المعزولين، والذين يتعاملون مع العامة كما يتعامل البيطري مع شاة جرباء، كانت أفكارهم الأساسية مستوردة من أوروبا ولا ينجحون في تقديمها للشعب حتى من دون أن ينزعوا عنها غلاف التعبئة الذي جاءت به"¹¹، يدل هذا الملفوظ السردى على التوجه الإيديولوجي للروائي وكيفية توظيفه في صياغة المتن الروائي بطريقة مغايرة لما سيسرده عن الطبقات الاجتماعية الأخرى، وأيضا قوله: "أما المحافظون الذين يملكون مكاتب في كل قرية وفي كل زاوية... كانوا لا يملكون تكرار الحديث الذي لا يصدقه أحد حتى أطفالهم عن المشاريع الوطنية الكبرى والنجاحات الخارجية والجيش الذي لا يقهر. كانوا يدركون بعمق سبب المشاكل ويحاولون بشق السبل إرجاع أولادهم إلى حضن الحزب الذي لم يمتقوا هم أنفسهم شيئا مثله أبدا بأحقاده التي لا تزول، واجتماعاته المغلقة التي لا تنتهي وكواليس الظلام التي تحركها إيطاراته، والتي لا يتقن فنونها أحد على وجه الأرض مثلهم"¹². يتأكد جليا أن الروائي

يحاول ضخ ذلك الخطاب النقيض لما أتى على ذكره آنفاً، ويبرهن مرة أخرى على تكييف الخطاب النقيض وفق مقتضيات المرحلة الاجتماعية والأمنية التي مرت بها البلاد.

وتشكل هذه الملفوظات السردية (**Enoncées Narratives**) في الوقت نفسه، نواة للبرامج السردية (**programmes narratives**)، التي تحيكل البناء الفني للمتن الروائي، إذ تضم مجموعة من الفواعل (**Actants**) مدار الحكيم، والتي شكلت فيما بينها برامج اتصال وانفصال (**conjonction/ disjonction**)، انطلاقاً من محور الرغبة في امتلاك الموضوع المتصارع عنه، وهو الوصول إلى سدة الحكم عبر برامج سياسية لكل فئة تطرح البديل، وتنقض ما جاءت به الفئة الأخرى، باعتبار مكيفات الفعل التي تحدد كفاءة (**compétence**) كل مجموعة كذوات قائمة بالفعل.

وتأسيساً على ما سبق، نحاول بشيء من الإيجاز أن نتبين مجموعة هذه الشخصيات بأوصافها ودلالاتها، وبنياتها الداخلية والخارجية.

1-عمار بن المسعود:

شخصية فاعلة في المتن الروائي، ركز عليها السارد من بداية عملية السرد عند افتتاحه للملفوظات السردية الأولى للرواية، وحتى نهايته منها. تواترت هذه الشخصية تواتراً تكرارياً مكنها من احتلال المرتبة الأولى من خلال ذكر الشخصيات وأدوارها داخل المتن الروائي، أضف إلى ذلك أنها الشخصية الأساسية باعتبار ما تملكه من كفاءات ومؤهلات ليست علمية أو ثقافية، إنما كلامية حجاجة، وتسلمة قمعية، خاصة على تشكيلته السياسية التي ترأس مكتبها السياسي ببلدته، لذلك نال لقب "الفتى الواعد"، الشاب الطموح، "ممثل طبقة الشبان الجدد"، "قائد الطليعة المتحررة"¹³.

هذه الشخصية سكنها هاجس التملك وحب الظهور، والحالة الباثولوجية التي يمكن أن نسميها بـ "جنون العظمة"، المتحررة من كل القيود والضوابط التي رضى لها أترابها. هي الشخصية التي تحتل معاني عديدة متضاربة، متصارعة في نفسها، نماها جهله واستهتاره، وكذا هوسه الشديد لبلوغ أعلى منصب في الدولة، سايره الكاتب في كل أطوار الرواية، بدءاً من صباه إلى شبابه، ثم زواجه من (لويزة الحسناوية)، ثم تقلده رئيس مكتب سياسي، ثم أمير كتبية فدائية سميت (كتبية الغضب)، لما علم بأمر كتبية الغضب لم يمانع ولم يعارض¹⁴ رغم جهله وأميته ساد حتى على الشخصيات المثقفة في الرواية كشخصية "جمال المبروك".

2-جمال المبروك:

شخصية مساعدة لشخصية (عمار بن المسعود). لم يتوقف عندها الكاتب بالقدر الكافي أثناء عملية وصف الملامح والأوصاف كما كان يفعل مع باقي شخصيات العمل، غير قوله: "لكن جمال المبروك، وكان طالبا جامعيا مرموقا راح يشرح بابتسامة أن في خطاب الرئيس أشياء كثيرة أولها الديمقراطية"¹⁵، إلا أنه سرد بنيتها الداخلية بشيء من الإسهاب، مركزاً على الجانب التثقيفي التي كانت تتمتع به هذه الشخصية، عكس باقي مجموعة حزب اللحي الطويلة، مت دخلاً في رسم معالم سيرها، وتفكيرها، ومبادئها بما ينبئ عن مغايرة منهج هذه الشخصية ما كانت تقوم به عناصر الشعب والفساد الأخرى. "كان جمال

المبروك مرهف الشعور... غادر وفي قلبه كل الحقد على (سمير الطايش) المتعصب وعمار الأمي المهووس¹⁶. كما جاء في ملفوظ آخر معارضا لما خطط له (سمير الطايش) و(عمار بن المسعود) من تكوين جماعة أشرار، "... إلى أن جاء جمال المبروك، طارحا عليه الفكرة فعارضها بشدة، وقال أن النظام المحافظ مضطر إلى إجراء انتخابات أخرى آجلا أم عاجلا"¹⁷.

3-سمير الطايش:

هو الآخر شخصية مساعدة ل(عمار بن المسعود)، توقف عندها الراوي كثيرا، ميزنا صفاتها وملاحظتها، بشيء من الإسهاب، رسم من خلال ملاحظته سيرة حياته الخاصة، المتميزة بالشذوذ والاضطراب والعنف والدم وغيرها، "كان من ضمن الشبان فتى يدعى سمير الطايش، تميز دوما بأفكاره الذهبية، كان هو الذي اقترح عليهم إنشاء شرطة حزبية لمراقبة السلوكيات الأخلاقية للمواطنين، وهو الذي أوعز إلى عمارة بفكرة القضاء الشرعي، كما لعب دورا بالغا في حصول المكتب على التبرعات الكثيرة، كان فتى أشقر الشعر نحىلا كمسمار بعيني ثعلب، لا تتوقفان أبدا عن الحركة"¹⁸.

هي شخصية مكررة تظهر عكس ما تبطن، تمتاز بذكاء الثعلب، وتجسد فعاله في كلمة تختزل كل معاني المكر والخداع والغش، شخصية متلهفة إلى الدماء والقتل والدمار، اضطلع بأدوار عدة في مسيرته أثناء عملية السرد، من خطيب ناري لجماعته، إلى تقلده منصب الحاكم الشرعي للقصاص والحكم على جماعات الضحايا والأبرياء، باختصار موجز؛ شخصية يدل اسمها على مسماها، فالطيش ضد الحلم، وضد كل الطباع الحسنة، لذلك أسندت هذه الصفة لاسمه لانعدام نسبه وعائلته، وكل ما يوحي بعراقاة الأصل والمنبت، عديم الرحمة قاسي القلب، حتى أنه قاد جملة من العمليات أسفرت عن إحراقه جماعة من الجنود: "ماعدنا سمير الطايش الذي لم يعرف له عائلة أبدا في البلدة، ولقد راح يشغل نفسه بإطلاق رصاصات الرحمة على كل المجرى من الجنود، ثم أفرغ عليهم الوقود وأشعل بهم نارا عظيمة، ولقد جن كل من رأى ذلك المشهد من أهل البلدة"¹⁹.

4-لويضة الحسناء:

شخصية فاعلة في المتن السردى، كما أنها تصنف ضمن الشخصيات المساعدة ل(عمار بن المسعود)، باعتبارها أصبحت زوجته بعدما حلت بالبلدة. جاء وصفها من قبل السارد على أنها "امرأة قيل أنها سليلة أسرة ملكية تركية، من ملوك الأناضول المنقرضين. في البداية راح الجميع يتعجب من جمالها الذي يصيب القلوب ويتركها حائرة، وضحكاتها المفزعة الشبيهة بالصرخة، كانت بشعرها الطويل الذي يبلغ ثلاثة أمتار، والملتف حول محورين من البلاستيك تستهوي الرجال"²⁰.

شغلت هذه الشخصية حيزا معتبرا من عملية السرد، وكانت عنصرا فاعلا في عملية تحريك الأحداث عندما شارف العمل الروائي على نهايته، حيث أنها هي التي خلصت زوجها (عمار) من المجاهد (الحاج سعيد)، حين هم بأسره بعد أن استسلم له، "فنهضت لويضة إليه وقد ملأها الغضب، وأحاطت رقبتة بأصابعها الرقيقة الشفافة، وراحت تحنقه"²¹، ثم قولها هازئة ب(الحاج سعيد): "مادام الرصاص لا يقتلك، فلتجرب الخنق بأصابع امرأة جميلة"²². إلا أن وظيفتها في عملية السرد لم تكن لتخرج عن كونها ملاذا للمتعب من ضغط السياسة والسياسيين، إلى جانب كونها المرأة المثالية في تسيير شؤون البيت ورعاية أصحابه، فكان دورها بالتالي دورا أسريا بصفتها ربة بيت من الطراز الرفيع.

5-الحاج سعيد:

الشخصية الضديدة في البرامج السردية لشخصية (عمار بن المسعود). زعيم حزب المحافظين في البلدة ورئيس البلدية في آن²³، جاء وصفه متقطعا في المتن الروائي، إذ لم يعن الراوي بدقائق وصفه وملاحمه، غير أنه ركز على الجوانب الداخلية لهذه الشخصية، واصفا إياه بالشجاعة والحزم، "ما إن وضع سماعة الهاتف حتى أخبره مساعدوه أن الشبان يقذفون البلدية بالحجارة، فاشتعل وجهه بالغضب، وعزم على الخروج إليهم ببندقيته الصدئة التي ما حركها أحد من مكانها منذ أن علقها صاحبها على الحائط منذ زمن الثورة، إذ لم تكن تنقصه الشجاعة وهو المحارب القديم"²⁴.

عملت شخصية (الحاج سعيد) على تكريس ما هو كائن بشق السبل، بصفته المستفيد الأول من الوضع الراهن، وذلك بحكم ممارسته لعبة السياسية أحادية القطب، إذ هو "المحافظ الذي تولى رئاسة البلدية منذ عشرين عاما"²⁵، وهو الذي "أمسك بقبضة من حديد ولسنوات طويلة من حكمه على زمام الأمور"²⁶. سائرت هذه الشخصية كل أطوار عملية السرد بصفقتها تمثل قطبا من ثلاثة أقطاب أخرى تسعى إلى بلوغ المرام وحياسة الموضوع (Objet)، ضمن صراع مرير مع باقي الفعاليات والبرامج.

عُيِّت هذه الشخصية وغيّب دورها بفعل عملية الإزاحة التي مارستها السلطة الحاكمة أثناء سير الأحداث في العمل، شخصية جريئة تمتاز بالصبر، ونصب الكمائن والمكائد، بحكم معرفتها بوجود فعل شيء يقضي بإعادة الأمور إلى نصابها، اكتسبت هذه المؤهلات والكفاءات من مرجعية سابقة لها، خاصة أثناء مقاومة الاستعمار.

6- شخصية الجنرالات الأربعة عشر:

يتكون هذا العنصر من مجموعة فواعل تأتمر بفاعل/مرسل على مستوى الخطاب، وهو الشخصية التي يتوقف عندها الراوي كثيرا بالوصف والتدقيق، سواء في ملاحمها الخارجية أو في طباعها الداخلية، هذه الشخصية هي التي وصفها الراوي بصفة "الضخامة". غير أنهم "يشترون كلهم بتمتعهم برقاب كرقاب الثيران، وسحنة جزار جشع، ببطون مكورة تمتد نصف متر إلى الخارج، وشوارب سوداء غليظة وأيد كأنها قراعة فظيعة، كانوا إذا تحدثوا تسمع أصواتهم كأنها نقيق ضفادع في موسم التزاوج"²⁷.

إن هذا العنصر من الشخصيات أو الفواعل هي النص الغائب الحاضر في سير عملية السرد بالأحداث، إذ عليها مناط الرواية برمتها، وهي التي تحتل عنوان الرواية في تصرفها بمجريات الأحداث والأمور، فهم السادة وهم أرباب المصير، آية ذلك ما جاء في المتن السردية "تخلق الأربعة عشر جنرالا حول مائدتهم التي شهدت عشرات القرارات المصيرية تحت شعار الثورة بادئ الأمر، ثم غيروه مع الوقت إلى المصلحة العليا للوطن، فباعوا المبادئ بالمصالح، كانوا يقررون في هذا المكان القدر تحت الأرض كل الأشياء الهامة والخطوط العريضة، ولقد اضطرتهم الأمور، ولاسيما الخارجية منها إلى إقرار الديمقراطية والسماح بإنشاء الأحزاب، والصحف المستقلة وإعلان مواعيد محددة للانتخابات، معتقدين أن كل شيء تحت التحكم، وأنهم يعرفون ما يصنعون"²⁸.

إن هذا الملفوظ السردية يحتزن كل معاني القوة والسلطان والمال وغيرها من مظاهر التملك والسيطرة والسيادة، فهم الذين يقررون، وهم الذين يعدلون، أو حتى يلغون كل معارض أو ضديد لتوجههم. ومناطق الحكي في الرواية متوقف في جزئها الأخير

على هذا العنصر، فجملة هذه الشخصيات هي التي تتحكم في عصب الحياة للمجتمع، بما تملّيه من قوانين، وما تجدد من وعود، تحرك منفذ قراراتها في الخفاء التام ومن وراء حجاب، حتى أن اجتماعاتهم تجري في الظلام خارجا، وبضوء خافت في قاعة الاجتماعات، وكأنهم يخشون النور من فضح فعالهم.

أما أضخمهم الذي نزع عنه الراوي رداء التدثر ووضع في بؤرة الضوء للوصف؛ فهو "ضخم الجثة يتجاوز المترين، بعينين صغيرتين وجبهة ضيقة، وكان إذا تحدث تحركت شحوم وجهه في حركة مترهلة كأنها عجينة بيتزا. كان يسيطر وحده على حركة استيراد المعدات المنزلية والأقمشة الجاهزة"²⁹. يضيف الراوي لجملة هذه الصفات الجسدية صفات أخرى أخلاقية، تتعلق بمبادئ بناحية القوة على إنجاز الفعل، بحكم المنصب الذي يشغله، ولتبيين هذه الكفاءة في الملفوظات السردية التالية: "قطع أضخمهم هذه التمثيلية"، "عاد أضخمهم ليتكلم"، "أمسكه أضخمهم من ربطة عنقه"، "تركه أضخمهم"، "وافق أضخمهم وتبعه الآخرون"³⁰. يدل كل هذا دلالة صريحة على عدم افتقار هذه الذات لمبدأ القوة في إنجاز الفعل، مع إمكانية عدم الرغبة في الفعل مع مكيف الشعور بوجوب الفعل.

في الوقت ذاته تمثل مجمل هذه الشخصيات الإطار الخارجي، وكذا الموجود الداخلي في موضوع القيمة (Objet de valeur) المتصارع حول تملكه وهو السلطة العليا، إذ هي الذوات التي تنصب متى شاءت ومن شاءت، وكذلك تنزع من شاءت ومتى شاءت، هؤلاء هم الخصم والحكم كما أنشد المتنبي.

7- شخصية فاروق المحطة:

هذه الشخصية لم يعن بها الراوي كثيرا على غرار ما فعل مع شخصياته الأخرى، ولم يتوقف كثيرا في رسم صورتها ولا في سرد مجمل ملامحها، مكتفيا بقوله: "كان زعيم الحليقيين في البلدة رجلا يدعى فاروق المحطة، كان أستاذا جامعيا منع من التدريس بسبب تصرفاته المخلة بالحياء والاعتبار العام كما جاء في قرار الفصل الذي أمضاه العميد وهو يضحك ملء فمه، كان أهل البلدة يسمونه فاروق المحطة بسبب سفره الدائم إلى العاصمة عبر محطة الحافلات، حيث يجتمع هناك بشلته المغامرين لقضاء أوقات مريحة، وللحديث في السياسة بلا ملل"³¹.

لم تكن هذه الشخصية فاعلة على مستوى المتن السردية إلا على جماعة الحليقيين، بقدر ما كانت تعاني من افتقار إلى سبل الإقناع وطرق الحجاج، التي كان يتمتع بها خصومها من زعماء حزب اللحي الطويلة، وحزب المحافظين فقد لجأت إلى محور هذا الافتقار (Manque) بالكتابة في الجرائد والصحف؛ لأنها في نظرها أكثر تداولاً من الخطاب المنطوق. أما على مستوى بنية هذه الشخصية فقد شكلت لها الأفكار والبرامج الأوروبية مرجعية تستند إليها، وكأن الحلول المستعارة أو المستوردة هي الحل لكل أدواء مجتمعتها، فمعظم الأوصاف التي أتى بها الراوي معنوية، ترتبط في عمقها الدلالي بعلامات تتيح للشخصية التحرك في فضائها، يمكن إجمال هذه العلامة في لفظ اللاتوازن أو المزدوج، ففي حين تملك هذه الشخصية كفاءات ومؤهلات ثقافية وافية، إلا أنها في الجانب الأخلاقي تعاني من فساد على مستوى إنجاز الفعل، "كانوا يتحدثون عن الشعب وكأنهم يتحدثون عن مخلوق

إنسيكلوبيدي، يقدم كل واحد منهم وجهة نظره الخاصة حول ردود أفعاله وتصرفاته، وكانوا يمثلون حديثهم القلق بمصطلحات علمي الاجتماع والنفس وشيء من هوس الخمر³².

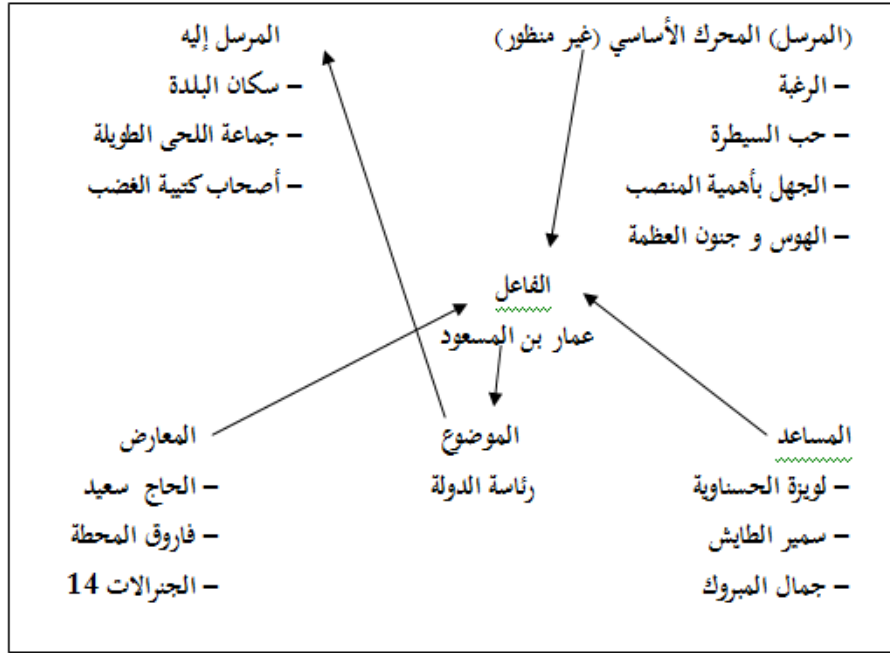
لم يكن تعدادنا لمحمل أسماء هذه الشخصيات الفاعلة اعتباطا، بقدر ما كان وفق خطة مدروسة، أملت لها آليات المنهج وإجراءاته، حول تحديد بنية الشخصية الفاعلة والمؤثرة في سير الأحداث في المتن الروائي، وما إقصاؤنا لأسماء أخرى عجت بها الرواية، إلا من باب عدم الوقوف طويلا وبطريقة إحصائية عند كل من جاء ذكرهم في العمل، إذ المراد هو تعداد الشخصيات الفاعلة وليس كل الشخصيات المتحدث عنها.

وتأسيسا على هذا، رأينا أن نكمل ما بدأناه ضمن المقاربة بالوقوف عند مختلف التحولات الوظيفية التي أسس لها السرد نصيا، انطلاقا من جملة الأدوار والوظائف التي قامت بإنجازها هذه الشخصيات على مستوى النص، فقد احتكم هذا الأخير إلى عامل الحركة والدينامية في الأحداث التي واكبتها جملة الشخصيات في الرواية، وتراوحت هذه الحركية بين علاقات الاتصال/الانفصال عن موضوع القيمة المتنازع عنه في محور الصراع، وفي الوقت ذاته عمل محور الرغبة وكذا محور المشاركة والاتصال على بلورة جملة الوظائف السردية، التي وُظفت الشخصيات الروائية أساسا لتحقيق إنجازها من الأدوار الغرضية الموكلة إليها من طرف السارد.

فقد ارتبطت مجموعة الشخصيات الروائية سالفه الذكر بعلائق تواشجية عديدة على جميع مستويات الخطاب الروائي، فمن خلال النص يكون اختبار الكفاءة الوحيد موضوعه الرئيس هو اعتلاء عرش السلطة، انطلاقا من الملفوظات السردية الافتتاحية للنص، أما مجموعة الذوات الفاعلة فهي (عمار بن المسعود)، أما المرسل إليه فهو (جماعة اللحي الطويلة)، ويبرز معارض هذه الذات في مجموعة الشخصيات الأخرى المناوئة للبرنامج السياسي لجماعة (عمار) وهم: (الحاج سعيد)، (فاروق المخطلة)، (الجنرالات الأربعة عشر)، أما المساعد فشمل عصابة (عمار) المكونة من: (سمير الطايش)، (جمال المبروك)، و(لويزة الحسناوية)، مع إغفالنا لمجموعة من المساعدين الآخرين نظرا لتوسع الكاتب في ذكر الأسماء، فاقصرنا على الأسماء البارزة فحسب.

نستطيع كذلك تعداد أن الذوات الفاعلة المضادة هي (الحاج سعيد)، ومساعدته (جماعة المحافظين) ومعارضوه (جماعة حزب اللحي الطويلة)، و(جماعة الحليقين)، وموضوع القيمة هو بقاء دار لقمان على حالها. أيضا يمكن اعتبار شخصية (الجنرالات الأربعة عشر) مرسلا، والمرسل إليه هو شخصية (الرئيس)، المساعدون هم (جماعة حزب المحافظين)، والمعارضون هم (حزب اللحي الطويلة) و(جماعة الحليقين)، والموضوع دائما هو بقاء السلطة في تصرفهم.

غير أن كل هذه البرامج السردية العديدة لا يمكن إبقاؤها بالبحث في مداخلتها بحجمها الصغير هذا، فنكتفي باختبار الكفاءة الأول الذي أثبتناه في رأس هذا البحث، وهو الترسيم التالية التي تشكل النظام العامي لغريماس³³.

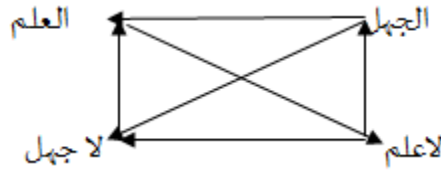


خامسا- إنتاج الدلالة:

يتضح مما سبق أن النموذج العائلي الذي حكم مختلف المحاور، من اتصال ورغبة وصراع، إنما ارتكز على علاقات دلالية تركز أساسا على محور الرغبة الذي يجمع كافة المحاور، أما فيما يخص عملية إنتاج الدلالة في المتن السردى فتألف من خلال مجمل الأدوار والوظائف الموكلة لكل شخصية فاعلة على حدة، فالدراسة الدلالية لأي نص "تتطلب موافقة تشكل خطابه الذي يمتد من مرحلة افتتاحه للمشهد السردى إلى مرحلة ختمه، فدراسة هذه الوضعية على امتدادها تساعد على الدفع بالإثبات السردى نحو الدقة العلمية المطلوبة لمعالجة النص، ثم إن هذه الدراسة تقتضي تحقيق نوع من الاتساق الذي يستدعي بدوره عناصر تشغل أوضاعا متناظرة داخل تعارضات مزدوجة تبين الدلالة"³⁴.

وبدراسة جملة من العلاقات الدلالية التي تحكم البنيات الأساسية للخطاب تنبجس شفافية المعنى ويسهل وروده على المتلقي، فمن خلال الدراسة السيميائية لنص الرواية (سادة المصير) نستطيع أن ندعي أنها مبنية على ثنائية إطار، تتحكم بدورها في أعناق ثنائيات عديدة تتفرع عنها، هذه الجدلية هي: الجهل/ العلم، التي تتوالد معنويا في مسارات تحكمها شبكة من العلاقات، لتؤدي إلى بروز ثنائيات أخرى لا يمكن إغفالها في عملية إنتاج المعنى الكلي للنص، منها مثلا ثنائية الظلم/ العدل، المجاهدة/ الخضوع، الخوف/ الشجاعة، وغيرها مما يمكن أن نأخذ بها الفجوات الدلالية التي يزدحم بها المعنى الكلي للنص، فالثنائية الإطار الجهل/ العلم هي الثنائية التي تجتمع في محور المعرفة³⁵.

وانطلاقا من هذا المحور يمكننا أن نضع مربعا سيميائيا نثبت من خلاله العلاقات الدلالية التقابلية لقطبي هذا المحور:



"إن المربع العلامي يهيئ -بحكم أنه يضبط العلاقات المنطقية القائمة بين الوحدات الدلالية الكامنة في عمق النص- اكتشاف بنية الدلالة العميقة المؤسسة للنص، المتحركة في بنيته السطحية"³⁶.

لا غرو أن البحث عن الدلالة في نص الرواية (سادة المصير) يتم عبر تقصي هذه الثنائية التي احتوت مجمل النص، بدءا من ملفوظاته الافتتاحية، ومرورا بجملة الأحداث الدامية التي ساعد على تواصلها وتكرارها عامل الجهل والأمية في غياب العقل والتفكير في الأمور، إلى الملفوظات الأخيرة منها، والتي كرست مبدأ الظلم في مجاهدة العدل. إنها جملة من القيم المتناقضة والمتضادة على مستوى خطية النص، القائم بها جملة من الشخصيات، التي اختارها الراوي لتجسيد جملة هذه الأدوار والوظائف، في أثناء ذلك تبرز دلالة البنيات النصية داخل الخطاب في شكل يضع كل فئة موضعها، فلغة الإسكافي غير لغة طالب الجامعة، ولغة الجنرال غير لغة العقيد وهكذا.

تنظم الدلالة في هذه الرواية ضمن مجموعة العلاقات الدلالية، التي تتحكم في سير المعنى، وكذا مجمل الحقول الدلالية التي لا تغفل سياق القول؛ سواء تعلق الأمر بالسياق اللغوي، أم بالسياق غير اللغوي الذي ينضوي بدوره في سياق الموقف أو الحال، كما ألمح إلى ذلك الإمام (عبد القاهر الجرجاني)، و(فيرث John Rupert Firth) و(مالينوفسكي Bronislaw Malinowski). "إن أهم ما تبني عليه الدراسة الدلالية أنها (إتية)؛ أي أنها تلزم النص وتتقيد به، ذلك أن الغاية المستهدفة من الدراسة هي إبراز آلية النص في خلق المعنى وتبليغ صده، والسبيل إلى ذلك كشف شبكة العلاقات القائمة في صلب النص وفنون تأليف الوحدات الدلالية"³⁷.

سادسا-خاتمة:

بعد أن تم استهلاك رؤية هذه الدراسة، نخلص إلى أن شخصيات رواية (سادة المصير) للكاتب (سفيان زدادقة) تشكلت نصيا لترسم جملة من اللوحات، مكونة بذلك مشهدا دراميا ساهم الكاتب كثيرا في بلورته، انطلاقا من مرجعياته الفكرية والقرائية، التي حاول تجسيدها ضمن هذا المتن، إضافة إلى ذلك أن الدلالة الكامنة في نسيج النص الروائي، تُسهّم الشخصية بقسط وافر في إبرازها للمتلقي. لا ندعي في الوقت ذاته أن معاني الرواية مبذولة لجميع القراء، خاصة عند غياب عنصر التأويل في عملية الفهم لاستخلاص الدلالة، فهي عصية متمنعة إلا على من يؤانس الخطاب ويهادنه، ثم يستنطقه على حد تعبير (الجابري) باعتبار "القراءة استنطاق، وما يهمنا هو النصوص التي تقبل الاستنطاق؛ لأنها تمتنع عن النطق أما تلك التي تنطق بما فيها، فهي لا تقبل استنطاقها ولا تتحملة."³⁸

الإحالات

- ¹ - سعيد بنكراد: شخصيات النص السردي -البناء الثقافي-، سلسلة دراسات وأبحاث، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، د.ط، 1994، ص: 16.
- ² - حميد حميداني: بنية النص السردي - من منظور النقد الأدبي-، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط3، 1994، ص: 23-24.
- * تنحصر الوظائف عند بروب في 31 وظيفة مع إمكانية وجود السقوط لبعضها أو التكرار في بعض الحكايات أو السقوط والتكرار معا.
- ³ - ينظر، سعيد بنكراد: مدخل إلى السيميائية السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2003، ص: 12-13.
- ⁴ - الصادق قسومة: طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر، تونس، د.ط، 2000، ص: 68.
- ⁵ - إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب الأدبي -دراسة تطبيقية-، دار الآفاق، الجزائر، د.ط، 1999، ص: 154.
- ⁶ - فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية. ترجمة: سعيد بنكراد، دار الكلام، المغرب، د.ط، 1990، ص: 09.
- ⁷ - الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، ص: 98.
- ⁸ - ينظر، المرجع نفسه، ص: 98.
- ⁹ - المرجع نفسه، ص: 98.
- ¹⁰ - سفيان زدادقة: سادة المصير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002، ص: 13.
- ¹¹ - المصدر نفسه، ص: 14.
- ¹² - المصدر نفسه، ص: 16.
- ¹³ - ينظر، المصدر نفسه، ص: 09-10.
- ¹⁴ - ينظر، المصدر نفسه، ص: 72.
- ¹⁵ - المصدر نفسه، ص: 11.
- ¹⁶ - المصدر نفسه، ص: 51.
- ¹⁷ - المصدر نفسه، ص: 71.
- ¹⁸ - المصدر نفسه، ص: 23.
- ¹⁹ - المصدر نفسه، ص: 88.
- ²⁰ - المصدر نفسه، ص: 28.
- ²¹ - المصدر نفسه، ص: 153.
- ²² - المصدر نفسه، ص ن.
- ²³ - ينظر، المصدر نفسه، ص: 34.
- ²⁴ - المصدر نفسه، ص: 42.
- ²⁵ - المصدر نفسه، ص ن.
- ²⁶ - المصدر نفسه، ص: 44.
- ²⁷ - المصدر نفسه، ص: 57.
- ²⁸ - المصدر نفسه، ص: 58.
- ²⁹ - المصدر نفسه، ص: 59.
- ³⁰ - المصدر نفسه، ص: 62-63.
- ³¹ - المصدر نفسه، ص: 35-36.

³² - المصدر نفسه، ص 15.

³³ - محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردى -نظرية غريغاس-، الدار العربية للكتاب، تونس، سلسلة مساءلات، د.ط، 1993، ص: 38.

³⁴ - فريدة بن عزوز: التحليل السيميائي للنصوص الأدبية، مجلة كلية الآداب، تطوان، المغرب، جامعة عبد الملك السعدي، مطبعة أطوبريس، ع1، 2000، ص: 157.

³⁵ - ينظر: محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردى -نظرية غريغاس-، ص: 93.

³⁶ - المرجع نفسه، ص: 97.

³⁷ - المرجع نفسه، ص: 30.

³⁸ - محمد عابد الجابري: نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط6، 1993، ص: 90.

المراجع:

(1)الكتب:

-إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب الأدبي -دراسة تطبيقية-، دار الآفاق، الجزائر، د.ط، 1999

-حميد حميداني: بنية النص السردى - من منظور النقد الأدبي-، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط3، 1994.

-سفيان زدادقة: سادة المصير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002.

-سعيد بنكراد: شخصيات النص السردى -البناء الثقافي-، سلسلة دراسات وأبحاث، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، د.ط، 1994.

-سعيد بنكراد: مدخل إلى السيميائية السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2003،

-الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر، تونس، ط1، 2000.

-فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية. ترجمة: سعيد بنكراد، دار الكلام، المغرب، د.ط، 1990.

-محمد عابد الجابري: نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط6، 1993.

-محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردى -نظرية غريغاس-، الدار العربية للكتاب، تونس، سلسلة مساءلات، د.ط، 1993.

(2): المجلات:

-فريدة بن عزوز: التحليل السيميائي للنصوص الأدبية، مجلة كلية الآداب، تطوان، المغرب، جامعة عبد الملك السعدي، مطبعة أطوبريس، ع1، 2000.